امكانيات هائلة للتوسع في المجتمع الاقطاعي»[٣١]. فحيثما أقصي اليهود تدريجياً من البلدان الغربية، كانوا يثبتون وضعهم باستمرار في شرق أوروبا. لكن «بعد تطور الرأسمالية في القرن التاسع عشر (الرأسمالية هذه المرة، لا الرأسمالية الحرفية) أخذ وضع يهود روسيا وبولونيا المزدهر بالارتجاج»[٣٢].

يقول ليون: ان اندماج اليهود في أوروبا الغربية سار باتساق مع تقدم الرأسمالية. وهو يعيد عدم اختفاء اليهود تماماً في الغرب الى الهجرة الكثيفة ليهود أوروبا الشرقية نحو الغربية. هذه الهجرة التي ترتبط أسبابها بالأسباب العامة للهجرة في القرن التاسع عشر ككل[٣٣]. وفيما يتعلق باليهود، فقد اتجهت هجرتهم في بدايات القرن التاسع عشر الى داخل روسيا والمانيا، حيث دخلوا في العمليات الاقتصادية للنظام الرأسمالي وتحديداً في المراكز الصناعية والتجارية الكبيرة. مما أدى الى ولادة البروليتاري اليهودي للمرة الأولى منذ قرون[٣٤]. وهكذا فان الرأسمالية «وضعت أسس حلّ المسألة اليهودية لكنها لم تحلها»[٣٥]. وضعت أسس الحل بما أحدثته من فرز طبقي في أوساط اليهود، فان الذي يميز عصر البرجوازية، كما جاء في البيان الشيوعي، «هو انه جعل التناحر الطبقي أكثر بساطة. فالمجتمع آخذ في الانقسام أكثر فأكثر الى معسكرين كبيرين متعارضين، الى طبقتين كبيرتين، المواجهة بينهما مباشرة هما: البرجوازية والبروليتاريا»[٣٦]. وهذا ما أسهم في تحديد وضع اليهودي بالطبقة التي ينتمي اليها، وبالتالي فقد اليهودي خصوصيته التقليدية التي حافظ عليها في المجتمع الاقطاعي. ولم تحل الرأسمالية مشكلة اليهود، حيث ان المجتمع البرجوازي الذي نشأ على انقاض الاقطاع «لم يقض على التناحر الطبقي، بل أقام طبقات جديدة وأوجد ظروفاً جديدة للاضطهاد»[٣٧]. في هذا السياق، نفهم اشارة ماركس الى بلوغ مسألة اليهود ذروتها مع اكتمال المجتمع البرجوازي، وكذلك ملاحظة ابراهام ليون بأن أزمة النظام الرأسمالي في القرن العشرين قد زادت من تفاقم المشكلة اليهودية.

الحل الصهيوني

ليس من شك في أن مشكلة يهودية قد نشأت في سياق التطور التاريخي. لكن هذه المشكلة لم تنشأ لأن البشر، بالطبيعة ومنذ ولادتهم، معادون للسامية، بل نتيجة تفاقم مشكلة اليهود ووصولها الى حد الأزمة، مع انهيار النظام الاقطاعي في أوروبا الشرقية وعجز أوروبا الغربية الرأسمالية المتطورة، والتي كانت الوجهة الجديدة للمهاجرين الشرقيين، عن تقديم الحل. هذا العجز الذي هو في صلب النظام الرأسمالي الذي اتسم منذ ولادته بالأزمات الاقتصادية والبطالة؛ «اذ لا يمكن للانسانية التي حققت لها الرأسمالية منجزات ضخمة، أن تتمتع بكل هذه المنجزات، الاّ بزوال الرأسمالية ذاتها. فالاشتراكية وحدها هي القادرة على دفع الانسانية الى مستوى المرتكزات المادية للحضارة»[٣٨]. من هنا، فان أزمة النظام الرأسمالي العاجز تاريخياً، تعكس نفسها في ظواهره الاجتماعية كتأجيج النعرات ضدّ الأقليات القومية أو الدينية، مثلاً، والتي يغذيها في أوساط الجماهير الشعبية لحرف الحقد الطبقي للجماهير عن مساربه الصحيحة. وهذا ما لا يحتاج الى برهان، اذ ان الطبقات المستغلة مارست ولا تزال الشعار التقليدي المعروف «فرق تسد». ومارسته الطبقات الحاكمة في أوروبا الرأسمالية ضدّ شعوبها وخارج حدود قارتها، في المستعمرات.